البعثيون والأمريكيون .. تحالف إستراتيجي أم صراع من أجل البقاء ؟

28-10-2003

فالأمريكيون أدركوا ولو متأخرين أنهم أخطئوا التقدير لأن العملية برمتها أكبر من أن يُتعامل معها بهذه السرعة أو أن تُحسم بجرة قلم، ومحاولة تحييد هذا الحزب الذي ارتبط اسمه بحياة العراقيين أنفسهم تتجاوز حربا نفسية ودعائية تنطلق من دوافع الكره والتذمر الذي استحكم في النفوس بسبب ممارسات القمع والتخويف، لأن القضية أصبحت تتعلق بهم أساسا وبطبيعة وجودهم، والأهم من هذا بمقدرتهم على ملأ الفراغات التي أحدثها انسحاب البعثتين

بقلم فيصل فرحي

يبدو أن المستقبل لن يبتسم مرة أخرى لمليونين من العراقيين كانوا بشكل أو بآخر يمثلون خلال سنوات حكم النظام السابق القاعدة النضالية لحزب البعث - إلا إذا انقلب الأمريكيون على أعقابهم وخرجوا مولين الأدبار- بالنظر إلى التبعات التي سيتحملونها جراء القرار الصادر من بول بريمر الحاكم المدني الذي يحرمهم بموجبه من العودة مرة أخرى لممارسة أي نشاط حكومي، على خلفية مساهمتهم المباشرة في تكريس الدكتاتورية وباعتبار أنهم الحلقة الأقوى في سلسلة النظام "البائد"!.

ومع أن القرار جاء كرد فعل على "التورط" للبعثيين في دعم المقاومة وإسنادها، إلا أنه لا يخلو من لمسة استراتيجية تهدف على المدى البعيد إلى استئصال النزعة البعثية المتجذرة داخل شريحة واسعة من العراقيين ليسهل إعادة ترتيب الساحة السياسية والاجتماعية وفق الأجندة الأمريكية، بما يعطي "الأحقية" في التسيير لباقي الفصائل العرقية والدينية السائرة في الفلك الأمريكي، كما لا يمكن عزله أيضا عن النقاش الدائر حاليا داخل دوائر صنع القرار الأمريكي حول نسبة وجود الأفكار البعثية في العقل العراقي ومدى تأثره بها بعد السيل الضخم من الأخبار والمعلومات التي تعرض لها قبل أثناء وبعد الغزو بغرض تشويه صورة الحزب ككل والتقليل من هيمنته وتأثيره.

يعتقد الأمريكيون أن الأحداث تسير نحو الأسوأ بعد الفشل الذريع الذي منيت به جحافلهم حتى الآن على الجبهتين الأمنية والسياسية، وهذا ما يؤثر حسبهم على مصداقيتهم ويشوه صورتهم إلى جانب صورة الرئيس السابق صدام حسين التي –على ما يبدو- تسترجع بريقها الزائل في خضم تزايد لهيب المقاومة واشتعال جذوتها، وعليه فهم يحاولون الآن جاهدين إلى فصل صورة هزيمة صدام عن هزيمة الشعب العراقي محاولين إقناع العراقيين بأنه يمكن بناء البلد بعيدا عن حزب البعث وبتكاثف جهود الفعاليات الوطنية الأخرى فهل استطاعوا تحقيق شيء من هذا فعلا؟، يرى الكثير من المحللين والمتتبعين للوضع العراقي أن العقل الأمريكي المخطط يقع الآن بين فكي كماشة، فهو من جهة يريد أن يعزل البعثيين عن مواقع صنع القرار العراقي والدوائر الحكومية الفعالة، ومن جهة أخرى يريد بناء العراق في أسرع وقت ممكن ليعيد له الحياة والاستقرار اللازمين من أجل نزع فتيل الغضب المتزايد داخل الشارع العراقي المتذمر بسبب الوضع المأساوي، وهو يعلم أنهم كانوا يتحكمون فعلا في تسيير القطاعات الحساسة ويحتلون المواقع المهمة وعزلهم بهذه السرعة وبشكل جماعي ينتج عنه فراغ كبير يصعب ملؤها بالمعارضين الذين لم تكن لهم سابقة في التسيير، ولعل ما يؤكد صحة هذا الطرح هي المحاولة الأمريكية الأخيرة التي تهدف إلى إعادة دمج قدماء رجال الشرطة وأعوان المصالح الخاصة والجنود النظاميين في الجيش العراقي لحفظ الأمن وإعادة الطمأنينة على الرغم من ولاءاتها السياسية السابقة، التي وإن لم تحافظ على "حرارتها" لم تصل بالتأكيد إلى حد التجميد، فالأمريكيون أدركوا ولو متأخرين أنهم أخطئوا التقدير لأن العملية برمتها أكبر بكثير من أن يُتعامل معها بهذه السرعة أو أن تُحسم في جرة قلم، ومحاولة تحييد هذا الحزب الذي ارتبط اسمه بحياة العراقيين أنفسهم تتجاوز حربا نفسية ودعائية تنطلق من دوافع الكره والتذمر الذي استحكم في النفوس بسبب ممارسات القمع والتخويف، لأن القضية أصبحت تتعلق بهم أساسا وبطبيعة وجودهم، والأهم من هذا بمقدرتهم على ملأ الفراغات التي أحدثها انسحاب البعثتين، ولكي يصححوا أخطاءهم فهم يلعبون الآن على محورين، المحور الأول، البعثيون ذاتهم الذين لم تكن لهم ارتباطات وثيقة بالحزب عدا بطاقة الانخراط وولاءاتهم تقف عند حد الاشتراك، وهذا الصنف لا يحتاج من السياسة سوى ضمان لقمة العيش، وبالتالي توفير منصب شغل في هذه الظروف الصعبة يجعله ينسى كل ارتباطاته السابقة، إضافة إلى أولئك الذين مارس عليهم الحزب إجراءات قمعية وصودرت حقوقهم، ومع ذلك تمسكوا بانتماء ظاهري خوفا من التعذيب أو القتل وهم كثيرون، أما المحور الثاني، فيتعلق بالأمريكيين أنفسهم وقدرتهم على تطوير أدائهم بما يتلاءم مع الذهنية العراقية التي ترفض الاستفزاز ولغة الاستعلاء.

مالم يستسغه العراقيون وخاصة الطبقة المثقفة هو استثناء 14000 أستاذ ثانوي و 1832 أستاذ جامعي كانت لهم انتماءات بعثية من قرار الدمج، واعتبارهم خارج الخطة رغم أنهم لم يشاركوا بشكل رسمي أو غير رسمي في الحرب التي دارت بين الجبهتين العراقية والتحالف (وبغض النظر على أنه مجحف أو غير مجحف)، فمثل هذا الاستثناء يوضح فعلا ما يدور في خلد العقل الأمريكي ويؤكد رغبة جامحة في عزل العقل العراقي من تسيير شؤونه الداخلية والاقتصار فقط عند الضرورة على استخدام القدرات البدنية القادرة على التسيير دون التفكير لضمان دفع العجلة العراقية بأقل الخسائر، وهو من وجهة أخرى -ولعلها الوجهة الأقرب إلى الحقيقة- تصوير واضح جلي لعمق الصراع القائم الآن بين الأفكار بعدما ولى صراع القوة والحشود العسكرية، فمن يملك العقل يملك القرار، والأمريكيون فهموا على ما يبدو هذه المعادلة ويبقى الدور على العراقيين الذين ينظرون إلى واقعهم من خلال مرجعياتهم الدينية والعرقية الغارقة في صراعات لا منتهية.

للعودة للأعلى